الفصل الرابع

آه عليك يا قمري الجميل، وآه على هذا السحر السماوي لو يكون للجمال الأرضي شيء منه يتفادى به من لسان واشٍ وعذول! إنك لتسكب الصمت والنوم والأحلام على الأرض في ضيائك ممزوجة بالأفكار الجميلة لرءوس الفلاسفة التي تشبه القلوب الهرمة، ولقلوب العشاق التي أعرف كل قلب منها كأنه عقل فيلسوف، فما تكاد تطلع وتعتلي الأفق حتى تراك الأرض كأنك على فم السماء إشارة لها بالسكوت فتسكت؛ وإن بقي فيها من يشرق النهار في عينيه كأنه مختبئ فيهما بحركته وضوضائه كجماعة محرزي المال من لصوص النهار وطالبي المال من لصوص الليل مثلًا.. فإن الطبيعة تلقي عليه سكونًا ينزل بالليل وظُلمة شيئًا فشيئًا، فيبتدئ خفيفًا كالنوم الذي يلاعب اليقظة في الأجفان يجري وراءها وتشتد وراءه، وكلاهما يدخل الباب الذي خرج منه الآخر فلا نوم ولا يقظة، ثم يثقل كأنه النسيان يداعب الذاكرة الضعيفة ثم ينبسط ثم يستحكم فيجعل ذلك الهر الذي يشرق من عينيه كأنه في عمل لفظ ركيك يضطرب في لسان محتبس[1] فلا تلفظه الأرض ولا تسمعه السماء.

أنت يا قمري الجميل راية السلام الإلهية البيضاء، لا ترفع للنهار حتى يُغمد حسام الضياء في جفنه الأسود، وتسكن غمغمة الحرب التي يتقاتل أهلها في الحياة، وتنطبق أجفان الناس فكأن كل جفنين إنما يمثلان حياة امرئ زمَّت شفتيها كيلا تنزعج ملائكة السماء بهذه الأصوات الوحشية المنكرة التي تنبعث

(١) أي: في حبسه، وهو عيب من عيوب النطق لا يستطاع النطق معها من عنت واضطراب.

من فم النهار فتُقبل على التسبيح لله، وتُقبل الطيور وهي ملائكة الطبيعة على المناغاة، ويقبل العشاق وهم ملائكة الناس على الفكر والنجوى، ويقبل الشعراء من وراء أولئك جميعًا فينظمون الشعر الإلهي الذي تمتزج فيه ألحان الملائكة بأنغام الطيور وآهات العشاق، فيمتلئ من أسرار الفكر والعاطفة والقلب ويخرج ويكاد يخلق منه العقل، وترى فيه الروح بابًا من أبواب السماء كأنه الطهارة، وكِنًّا من أكنان الطبيعة كأنه القناعة، ومنفذًا من منافذ القلوب كأنه الحب فإذا هي بالسماء والأرض بين كلمات، وإذا كلمات تملأ بين السماء والأرض؛ ثم ترى الفكر الإنساني قد استحال إلى أمواج من الخيال يجري فيها القلب كأنه زورق من الزوارق فتثيب إليه، وما هو إلا أن يحتويها حتى تتناول مجدافه البديع المصنوع من جوهر العواطف والذي لا يبرح ملتصقًا به كأنه يد الحسناء على قلب عاشقها، ومن ثم يجري بها في بحر الجمال الذي تشبه السماء كلها موجة من أمواجه الأبدية الذي لا ساحل له إلا نور الفجر، والذي يخيل إليَّ أنك أنت **أيها القمر** جزيرة تلوح فيه على بعد.

لا كهذا الشعر البارد الثقيل الذي تفرغه أفواه بعض شعرائنا المشهورين[1][2].

وكأن ألفاظه قضقضة الأسنان من شدة البرد، وكأن معانيه العذبة ماء يستساغ على الريق، وإذا بلغت به الحماسة المنطقية.. رأيته فاترًا كأنما يتثاءبون به، وإذا أراد أحدهم أن يضع روحه في بيت من الأبيات ولو انطرح بعده جثة باردة..

---

(١) لا يذهبن عن أصحابنا أننا نعني بعضهم في الشرق كله، فمن رأى جملته من هذا التفصيل وأسمع الناس وأسمعوه فقد برئنا أن نكون بهتناه وإنما اتهم للناس نفسه. وسنفرد كتابًا خاصًّا بالقول في شعراء هذا الزمن وكُتَّابه ومراتبهم على أقدارهم من الصناعة وتاريخها، ثم الموازنة بينهم على أقدارهم كذلك. فانتظروا إنا معكم.

(٢) قلت: وهو وعد لم تتحقق له أسباب الوفاء به. ككثير من مواعده رحمه الله!

خرج هذا البيت رغم أنفك حارًّا كما شاء وانصرف عن أنفك وأنت تتنسَّم كأن ما فيه من الروح إنما خرج إليه من تحت إبطه..

شعراء!! وشعراء الشرق!! نعم ونعيم عين: وعند الزنوج جماعة يحسنون الرقص على نقر الطبول هم شعراؤهم، بل شعراء العقول الذاهلة والأحلام الطائشة، بل شعراء الوحشية التي تكتب بأسنانها وأظافرها.

هذه الوجوه التي صلبت من التمرغ على الأعتاب، وهذه الأيدي التي ينكرها الله حين تُمَدُّ.. وهذه الرءوس الفارغة إلا من جنون العظمة، وهذه القلوب التي تسع كل متماثلين إلا الإخلاص وحب الحقيقة، وهذه الأفواه التي تمج الماء في كل جهة، وهذه الألسنة المعقودة على بعض ألفاظ كما يعقد القروي الحِلْف تلك العقد الكثيرة في منديله على درهمين -هذه كلها، مجموعةً ومتفرقة، مما يتنزه الشعر الإلهي أن يسفَّ إليها؛ لأن أنفاس السماء لا تسقط هذا السقوط كله ولا يعذبها الله بأن تهبَّ على الأرض لكنس غُبارها.

لو عدا الشاعر الصحيح طور التكوين الشعري بصفاته لما كان منه إلا نبي. وإن تلك الأعضاء الشعرية التي يفيض الفكر عليها كلها لهي الأعضاء التي يتجسم بها مجد الأمة ليكون مَلِكًا من ملوك التاريخ لا لصًّا من لصوصه تشهد معارف وجهه أنه منطلق من حبسه، فيتراءى عليه غبار الأعتاب كأنه بقية مما كان فيه من الظلمة، وتراه لا يلوذ من خزيه إلا بزوايا التاريخ المجهولة ويود بجدع الأنف ولو يمسخ حجرًا من أحجارها التي كلُّ عُذرها في الخراب.

الشاعر الصحيح رجل الكمال السماوي؛ لأن الشعر إذا لم يكن مع الشرائع كان عليها، وفي ذلك فساد كبير، والشعراء أنفسهم: كالشرائع تكون لمن يشاء

أن تكون له، وهم يحكمون النفوس بالحب، والشرائع تحكمها بالرهبة، ولولاهم ما أعطي الناس قوةَ فهم التعزية فلم يكن لهم أن يطمئنوا لدين من الأديان، وإنك لترى الشاعر يستل جمال هذه الطبيعة كلها من نفسه الكبيرة ليُلقي على الناس محبة منها، كأن الطبيعة لا تجد طريقًا إلى النفوس الضعيفة إلا بعد أن تُصفي وتصفق في نفوس الشعراء فتخرج منها، كما تنبعث المعاني الغزلية الكبيرة من عيني الحسناء الفاتنة، ولكل معنى طابعه الخاص به في النفس مع أنها جميعًا من مصدر واحد.

ما هذه العظائم الكبرى التي يمثل بها الزمن تاريخ العقل الإنساني إلا أفكار ولدت بديئًا في قرائح الشعراء، ثم كفلتها الطبيعة تحملها في مهد من قلب امرأة جميلة، أو تمتد لها في عقل رجل حكيم، أو فيما تختاره هي كائنًا ما كان، حتى في الاستبداد والوحشية والحماقة والجنون وغيرها؛ لأن الطبيعة حكمتها التي لا يعرف كُنهها الإنساني إلا باستقراء تاريخ الأشياء في أجيال وقرون قبل ذلك كثيرة، وهو نفسه بعض هذه الأشياء.

فالشاعر الزائف كالدينار الزائف: كلاهما لا يجوز على أحد إلا مع الغفلة، وكلاهما رذيلة في نفسه بالغش ومصيبة على غيره بالخسارة.

وإن الذباب ليقع على الزهر كما يقع النحل ليجني العسل، وإنه ليطن في الروض كما تغرد الطيور لترقيص قلوبها الصغيرة، ثم يطير عن الزهرة ذبابًا كما وقع ويسكت ذبابًا كما طنَّ، وكيفما نظرت إليه لا تراه إلا ذبابًا؛ ولكنه من الطير، ولكنهم من الشعراء!

حنانيك يا قمري الجميل ورحماك! امسح عن قلبي هذه الغيمة السوداء التي انتشرت من أجنحة الذباب، فقد رانت عليه وغشي ظلها على بصري حتى ما أراك على وسامتك وضيائك إلا كوجه من تلك الوجوه، متى تصطبغ بكل لون إلا ما كان من الخلق الحسن فإنها تستمد من قلوب يكفي أحدها أن يكون (طينة) لخلق نوع من الإنسان بلا أخلاق!

حنانيك ورحماك! إن على قلبي غيمة كأنها من الكذب الذي لا صدق معه من القلب، والتملق الذي لا حياء فيه من النفس، والخيانة التي انعقد عليها الضمير فلا تحفظ غيب إنسان، والصلف الذي يشبه صلف المعتوه إذ يباح له أن يتجنى ولا يباح لك أن تعتب، والظل الأخلاقي البارد الذي يحيط بأحدهم فيجعل مثواه كأنه مغارة تبعث عليك أنفاسها ثقيلة باردة في ظلمة وكبرياء كأنها خارجة من أعماق تاريخ الفراعنة.

وإني كما أغمض عيني حين يواجهني الإعصار الأحمق الذي ينفض بساط الأرض في وجوهه السابلة -أراني منذ الساعة قد أغمضت عينًا في قلبي تطلع على الحقيقة، فإني لم أكد أرفع كأس الحكمة المعسولة لأحتسبها ولم تكن تقارب شفتي حتى تهافت عليها ذباب تلك الأخلاق، فأحرزتُها جانبًا لتسكن نفسي بعد أن خبثت من منظر هذه الظلال السوداء التي هي أجسام نفسها وظلالها معًا.

فاحمل إليَّ **أيها القمر** قطرة من ندى الروح الجميلة الذي ينسكب في أنفاس تلك الحبيبة، وأرسلها إلى كأسي في قناة من أشعتك السحرية حتى تمتزج بالحكمة على شفتي فكأني أتناول هذه الحكمة ثغرها البسام.